القصص

من أساطير الإغريق

بسيشيه وكيوبيد

أروع قصص الحب في التاريخ القديم

للأستاذ دريني خشبة

كان الليل الهادئ القمر أصفى من قلوب العذارى ؛ وكان النسيم الطليل الحلو يرف كالأماني في قلوب المحبين ؛ وكان البدر العاشق المسهد يرسل القُبَل فتنطبع على خدود الورد ، وتلثم أعواد الزنبق ، ثم تنتشر بالشذى فتعطر أحلام المدنفين !

وكان كيوبيد الصغير يتميز من الغيظ حين انطلق حاملا سهامه ليقتل پسيشيه ابنة الملك ، التي أهانت بجمالها كبرياء أمه ڤينوس !

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت پسيشيه وتدفق ماء الشباب في جسمها الريان ، فهويت إليها نفوسهم ، وخفقت بحبها قلوبهم ، وآثروها بعبادتهم من دون ڤينوس !

وكان للفتاة أختان حسناوان ، ذواتا دَلٍّ وفتون ، ولكنهما كانتا مع ذلك دونها قسامةً ووسامةً ولا نهائية !

أجل ، كانتا دونها لا نهائية ، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه في لُجَّةٍ من الحسن الغامض ما لها من قرار ؛ وكان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها ، وافتتانهم بها ، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال !

ودعت إليها ابنها ربةُ الحب ، فأثارت في قلبه المداوة لهذه الغادة وجسَّمَتْ له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتهما إلى هذه المخلوقة النَّعِمة :

« أفيرضيك يا بني أن نكون من آلهة الأولمب نكرتين لا يخبت لها شعب من العباد المخلصين ؟ أم يرضيك أن يتغامز بي الآلهة كلما مررت بهم ، وهم كما تعلم مغيظون مني ، فيقولون هاهي ذي ڤينوس التي هدمت كبرياءها امرأة ، وصرفت الناس عن عبادتها غادة ؟ اذهب إذن فتربص لها ، وأنفذ إلى أغوار قلبها سهماً يودي بها إلى هيدز ، وبئس القرار ! وإنه لا ضير على أن تهيم بها أرواح الموتى ، أو يفتتن بها پلوتو وملؤه . . . . .

ومضى كيوبيد إلى قصر الملك في طريق حُفَّت بالورد وعبقت فيها أرواح البنفسج ، وتأرج النرجس الغض ، واختلط كل أولئك بالقمراء الفضية فرققت من غيظ الإله الأصغر ، وجعلته يحس الجنة التي يخطر فيها ليقتل فتاة بريئة ، كل ذنبها جمالها ، وأقصى

بسيشيه وكيوبيد

ما ارتكبته من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها ، وفتنوا فيها ...

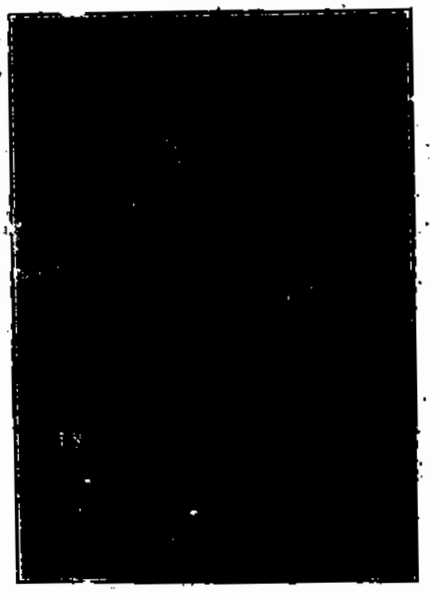

وكبر في قلب كيوبيد أن تنتهي هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجريمة ؛ وتفيض بالآلام ؛ فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل ، وكان ضوء القمر ينعكس على الأزهار ثم يرتد عنها شعراً وسحراً وموسيقى صامتة ؛ تعزف ألحانها على أوتار قلبه الخفاق !

وصدح بلبلٌ غرِد في هدأة الليل الفضي ؛ فانتفض الإله الأصغر وحمل قوسه وسهامه ومضى . . . لا يأبه بجمال الطبيعة

الساحرة ، ولايأسر لبه هذا البهاء الالـهى الذى يغمر الـكون حوله ، حتى كان عنـد أسوار القصر الملـكى الراقدة فى طوفان زاخر من أزهار الشيِر والياسمين والبابونيا

ورفتين من جناحيه الصغيرين كان فى حديقة القصر . . .

ها هو ذا يصعد على الدرج الرخامىّ ، متبخترا ، دون أن يلمحه الحرس . . .

وانفتل فى غرفة بسيشيه النائمة ، واندس خلف الستائر الحريرية يُوتّر القوس الذهبية ، وينتقى من كنانته سهماً تقطر المنية من سِنّتِه ، ويرقص الموت على شباته !

وتقدم نحو الفتاة . . . . . .

يا للجمال النائم فوق الأريكة ! ويا للفتنة المائعة ملء السرير !

لقد كانت متجردة كلها ! وكان نهدها البارز الشمر مجلّلاً بثديين ناهدين ، يتحلّبان لذاذةً ويلتهبان إغراءً ! !

ونامت هذه الذراع هنا ، واطمأنت تلك الذراع هناك ؛ لدْنتان وإن كانتا كالمرمر ؛ رخصتان وإن كانتا لتمثال معبود !!

وكان السحر يُهمهم فوق الساقين الملفوفتين ، ويهوّم من تحتهما ، كأنه يرقيهما من نفسه ، أو ينفث فيهما من روحه وبأسه ! . . . .

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية ، مستسلماً لأحلام الشباب الحلوة ، متلألئاً فى شعاعة من ضوء القمر سقطت عليه من النافذة القريبة ، رسولاً من لدن ديانا[1] البارة ، أقبل ليقول للأله الأصغر : « مكانك أيها الرامى الحبيب ! ماذا جنى عليك هذا الحسن فتسلمه للردى ، وتجرعه كأس المنون ؟ ! افتح له ما انغلق من قلبك تنعم به ، فانك لن تجد فى ربات الأولمب من تخلص لك الحب كما يخلصه لك هذا الهدف البرئ . . . ! »

وخطا كيوبيد خطوتين ، وحلق فى وجه بسيشيه .... وبهره الجبين المشرق ، والهدب الناعس ، والخد الأسيل .... وأخذ بلبه هذا الشمر السجدى تفضض حواشيه أضواء القمر فتزيده بهاءً ورونقاً ، فآلى لايهدرن هذا الجمال البارع ، وانثنى مسلوب اللب ، مشدوه القلب ، موزع الفكر ؛ وانتزع السهم فألقى به فى كنانته . . . وقبل أن يخرج يده الصغيرة الناعمة ، شاء القدر أن يخدشها سهم ذهبى من سهام الحب ، ملأ كيوبيد هوى وأفعم قلبه صبابة ، فتقدم نحو بسيشيه لهفان ، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجمالها الفينان

وطبع على الفم الدقيق قبلةً دقيقةً حلوةً ، وعاد أدراجه عاشقاً وامقاً لايبالى بسخط أمه ڤينوس ! !

* * *

وانصدع عمود الليل ، وتنفس الصبح فهبّت الأرواح النائمة ، وأقبلت ڤينوس ربة الحب لتسمع إلى النادبات النائحات فى قصر الملك ... ... بيد أنها ، بدلاً من ذلك ، رأت بسيشيه ، بسيشيه بعينها ، تمرح فى حدائق القصر ، وقد برزت عرائس الماء من الغُدران الصافية تحييها وتغنى لها ، وتضفر لها أفواف الزهر . . . . ! !

وحنقت ربة الجمال والحب ، ونادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد ، وأقسمت لتجعلن مباهج الحياة ووضاءتها ظلاماً فى عينى الفتاة ! !

فسلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها ، وأغرت بها خفافيش سوداء جعلت تنوشها وتهاجمها ، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها ، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر ، وطفقت تصرخ وتعول ، ولا يدرى أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول . . . وازدحم حولها أبواها وإخوتها والخدم والحشم ينظرون ويعجبون ولا يكادون يحيرون . . .

ومضوْا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة ، ولكنها ما كانت لتزداد إلا شكاةً وأشجاناً ! !

وكرت الأيام . . .

وانسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر ، وفى نفسها أن تلقى بحمل الحياة من شاهق ، فتستريح مما يطيف بها من آلام !

ورآها كيوبيد . . .

وظلت هى ترقب الموج المائج ، وتشهد اليم المصطخب ، وتلقى على البطاح نظرة مودع عجلان ، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذ القلب أسوان ؛ ثم صرخت صرخةً هائلة ، وألقت بنفسها من عل . . . . . .

وكان كيوبيد كان قد أحس بما تعتزمه حبيبته من الانتحار ، فدعا إليه صديقه ونجيه زفيروس ، إلـه الريح الجنوبية ، وأطلعه على ما يكن من الحب : « لهذه الفتاة التى تكاد تُلقى بنفسها من

(١) ديانا هى ربة القمر ، وهى التى اكتشفت كيوبيد ، فأرسلت الشعاعة فوق وجه الفتاة لانقاذها

قُنة الجبل يا صديقى زفيروس . فان رأيت أن تكون لك علىّ هذه اليد ، أذكرها لك أبد الدهر ، نخذ أهبتك ، ولا تدعها تغوص فى اليم ، بل تلقها فى يديك الرفيقتين ، واذهب بها إلى الجزيرة المقابلة حيث الشاطىء المنضور بالرياحين ؛ فدعها ثمّة ؛ فقد أعددت لها مُستراداً وملعباً . . . . . . »

ولشد ما دهشت بسيشيه إذْ رأت طيفاً نورانياً كريماً يبرز من الماء فجأة فيلتقطها فى يديه الكريمتين ، ثم يترفّق بها فيضعها على ظهره العريض الرّحب ، كأنه أريكة من أرائك الجنة التى وُعِد المتقون ، ويخوض بها اليم المضطرب فتعنو له الأمواج ويسجد من تحته الثبج ، ويصير البحر فى لحظة كأنه مرآة صافية ملساء ، كأنها صفحة السماء . . .

ويصل إلى الشاطئ المزدهر فيبسم للفتاة ثم يحييها بتمتمة ، وينطلق فى البحر الذى يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه . . .

وتجلس بسيشيه على الكلأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول ، لترى هل هذا الذى هى فيه حُلم ، أم هى قد ماتت فعلاً ولكنها دخلت الجنة ؟ ! !

بيد أنها تذكر أن الأرواح فقط هى التى تنفذ إلى دار الموتى ؛ وأنه ليس فى دار الموتى شمس ولا إياء ، وهى تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير ، وهى ترى أيضاً إلى الشمس مشرقة تغمر بأرادها البر والبحر ، وتنشر إياءها فى الأكوان جميعاً . . .

إذن هى لم تمت ، وهذا الطيف الكريم الذى أنقذها من الموت ، والذى ترفق فحملها إلى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة ؛ وإذن فلتنهض ولتضرب فى هذا الفردوس المنزل حتى يكون أمر غير هذا الأمر . . .

ومضت فى غِياض وأرباض ، ورأت فى الأفق القريب قصراً باذخاً ذا شرفات وأجياد ، فيممت إليه ، وما كادت تدنو منه حتى فُتحت بوّابة السور الكبرى على مصراعيها ، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها ، وانبرت أصواتٌ رقيقة موسيقية تحتفى بها وتُحيّى وتُبَشّى ! . . . . . .

وفركت بسيشيه عينيها كذلك !

وظنت أنها تحلم ، ولكن كل شىء حولها حدّثها أنها ترى رؤية حقيقية ، لا رؤيا منامية . . . . فدخلت القصر ، وفى نفسها من الحَيْرة وشدة العجب ما أخذ يتضاعف فى كل خطوة ويزداد . . .

وحاولت أن ترى أحداً ممن لهم هذا الصوت الرقيق . . .

ولكن عبثاً . . . ليس هناك إلا أذرع من نور تمتد إليها محتفية بها ، تقودها إلى المخدع الوثير الذى أعدته العناية لها . . .

ودار الحديث بينها وبين طيف لا تراه :

ــ « . . . ويدهشنى أنكم تحتفون بى . وتبالغون فى إكرامى ، وأنا لا أرى منكم أحداً ، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز ؟ (١) »

ــ « كلا أيتها العزيزة ؛ ولكننا أمرنا ألا نتكشف لك . . »

ــ « ومن ذا الذى أصدر إليكم هذا الأمر ؟ »

ــ « ونُهينا أيضاً عن ذكر اسمه . . . »

ــ « أنتم كرام ، ولكنكم تضايقوننى إلى حد الازعاج . . »

ــ « ليفرخ روعك أيتها العزيزة ، فنى المساء ، تلقين الآمر الكريم صاحب هذا القصر ، وصاحب القصور الكثيرة فى أطراف الأرض »

ــ « وهل لى أن أجول جولةً فى قصركم المنيف عسى أن تذهب هذه الوحشة الجاثمة على قلبى . . . »

ــ « ولم لا . . . بسيشيه العزيزة ؟ »

ــ « بسيشيه ؟ ! . . . ومن أنبأكم اسمى ؟ »

ــ « رب هذا القصر أيتها العزيزة . . . »

وجالت الفتاة فى القصر الجميل المنسّق ، وكان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران ، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة ، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة ، مُحَيّية بابتسامة خفيفة ، أو انحناءة مؤدبة . . . ! !

وكانت التماثيل فى زوايا الغرف ، وأوساط الردهات ، وفى حنايا الحديقة ، وفوق الربى المكسوة بالسندس الرَّطْب ، تحيّى الضَّيْفة ، كأن حياةً تدب فى مرمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها ، فتتحرك الأذرع ، وتوىء الرؤوس ، وتمر الفتاة وقد أخذ الدهش من نفسها كل مأخذ . . .

وكانت المنادل تهتف بها ترجوها أن تتلبَّث فتُسْمِعها أنشودة الخلد ، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل حتى ينتهى من غنائه الحلو ، وتغريده الرنان

وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس

(لها بقيـــة) دريني خشبة

(١) قلنسوة هرمز (طاقية) الاخفاء

أقصوصة عراقية :

بَدّاى الفايز

للأستاذ محمود ا. السيد

— ١ —

كان اليوم العاشر من شهر مايو . . .

كان الفرات فائضاً توشك أمواهه الطاغية أن تجرف السدود القائمة على ضفتيه . وكان الفلاحون من أبناء القبائل المختلفة ، في منطقة خضراء بين ذى الكفل والكوفة — كأمثالهم في مناطق الفرات الأخرى — ساهرين عليها ، مقيمين حولها ليلاً ونهاراً وَجِلين ، يخيفهم الخطر الجاثم حيالهم منذ شهر ، وقد اشتد بعد أن كان ضعيفاً مبهماً

وكان الصبح . . .

وكان النسيم يهب بليلاً فينعش هؤلاء المساكين ، ويحيي فيهم عنصر النشاط الذى كانوا فى أشد الحاجة إليه ؛ فقد أنهكهم النصب ، وآذاهم الجهد الذى بذلوا مذ طغى الماء ، وهم يصارعونه ليحولوا بينه وبين زرعهم — مع أنه جزء قليل من زرع الرؤساء المالكين — وماشيتهم ؛ وهما لهم قوام الحياة

وكانت سنابل القمح المنتشرة المتكاثفة فى الحقول على مقربة من بيوتهم — وهى من القصب البالى والحصر وجريد النخل — ومن النهر ، مصفرة ناضجة تبهج الناظرين . وكان وقت حصادها جد قريب

وحان الضحى ؛ فحانت ساعة العمل لتقوية السدود وتمكينها فانتشرت جموعهم كالنمل تحمل إلى المواقع الواهنة منها التراب من أطرافها ، ثم تعود لتحمل إليها التراب كذلك والحطب والقصب والحُصُرَ والمَمَدَ والحبال وما إليها ؛ ثم تعود مرة أخرى ، فأخرى ، يسوقها المهندسون والرؤساء المالكون فى غير مالين ولا إمهال

وحان الظهر ؛ فاستراحوا قليلاً ثم عادوا يعملون

وتغير الطقس ، آنئذ ، تغيراً مفاجئاً — ومثل هذا التغير مألوف ومعتاد فى العراق — فحجبت وجه الشمس عاصفة شديدة أثارت الموج فى النهر ، وعظم بها الخطر ، لأن السدود قد كانت احتملت من جريان المياه الطاغية وتيارها القوى أكثر مما تطيق احتماله ، فكيف بها الآن وقد أخذ الموج يلاطمها فيوهنها ويكاد يهدمها تهديماً

وكان الخطر أعظم ما يكون فى الضفة اليسرى من النهر ، لأن أهلها كانوا أقل عديداً من جيرانهم أهل الضفة اليمنى ، وأرضهم أوطأ من أرضهم ، وسدودهم أضعف من سدودهم

وكان الرؤساء جميعاً ، هنا وهناك ، مع وفرة غنائم ، وامتلاكهم الدور والأحراز والأرضين دون الفلاحين ، أحرص منهم على حفظ السدود لحفظ الزروع . فداروا حولهم يشجعونهم ويضربون المقصِّر المتخلف منهم عن صحبه بالعصى والسياط

ونحن الآن فى الضفة اليمنى

حان الأصيل ، وبدأت قصتنا ؛ فوقف فتى طويل القامة ، مفتول الساعدين ، آدم اللون ، يدعونه « بَدّاى الفايز » ويتميز بخنجر مفضض لا يفارق حزامه ، أمام رئيس من رؤساء القبيلة التى ينتمى إليها ، معتدلاً يعلوه الشمم ، وتهز كيانه نخوة الأعراب ؛ وقد أصابته منه ضربة عصا كما أصابت غيره ضربات ، وسواء أكان لتلك الضربة سبب من تقصير فى العمل أم لم يكن ، فان (بداى) الذى كان شاذاً فى قبيلته فى بعض خلاله ، قوى الشكيمة ، عزيز النفس ، معتزاً بقوة جسمه ، لم يحتملها ؛ فوقف يغمغم متظلماً فى شبه ثورة وعصيان

وبهت الرئيس ، فنظر إليه مستغرباً مستنكراً : مستغرباً شممه ونخوته وقد حسبهما طيشاً ونزقاً وخنزوانة عبد ، وحمله خنجره المفضض حتى فى ساع العمل المسير ، مستنكراً تظلمه ، وكيف لم يحتمل منه ما احتمل الآخرون أذلةً خاضعين

وأقبل عليه يريد أن يضربه مرة ثانية ؛ ثم انثنى عنه فى لحظة فأنشأ يرميه بما هو عند القبائل شر من ضرب العصى وأنكى ، قال يُعَيِّره :

— « ويلك يا جبان ! هل يرفع أنفك فيميزك عن اخوتك الطائعين هؤلاء خنجرك المفضض هذا ! ؟ ولأى يوم كريهة تحمل هذا الخنجر وتلك البندقية التى تعلقها بالسدرة ؟ وأين كان هذا السلاح يوم قتل جَسّام أخاك عباس ؟ ولماذا لم تثأر له به حتى الآن أيها الجبان الذليل ؟ ! »

وإذ نطق باسم « جسام » شدّد « السين » تشديداً غريباً ومد « ألفه » وهو يشير بعصاه اشارة ذات معنى إلى ضفة النهر المقابلة ؛ ثم إذ أتم كلمته ابتسم ساخراً متهكما وتولّى ، وهو مدرك أية طعنة نجلاء طعن الفتى

وسمع بداى هذه الكلمة الطاعنة أمام الجمهور الحاشد من الفلاحين الذين كان يرام دونه شمماً وإباء للضيم ونخوة ، وهو فى أسوأ حال من الاضطراب النفسى والغيظ ، وعضّ على شفته إذ أخذته (العزة) ؛ فصاح صيحة كاد ينفطر لها فؤاده :

ـ «اخسأ ! أنا أخو شمسة ! ولأنتقمنّ ولأدفننّ عنى عارى ! »

وترك العمل وهو حانق غضبان . وشعر بأن حياته أضحت عبئاً ثقيلاً عليه . و « النار ولا العار ! » وهل يهمه بعدُ الزرع وغير الزرع ؟ « لقد قتل جسام من أبناء القبيلة المجاورة أخاه عباسا ، فى نزاع على دين قديم ، منذ عهد قريب ؛ وتلكأ عن أداء ديّته . هذا ما كان يعلمه ؛ ولكنه لم يكن راضياً بالعار الذى خلع عليه هذا الحادث منه جلباباً أسود ضافياً . لم يكن ساكتاً عن حقه ، والثأر فى القبائل كالديّة ، حقٌ . على أنه لم ير بداً من التريث حتى تنجلى هذه المصيبة التى حلت بالقبائل الفراتية كافة : مصيبة الفيضان . فكان من المروءة تركه وشأنه ؛ أما وقد سبق السيف العذل ؛ فمُسيّر أمام الناس ، فلا كانت الحياة إن لم يثأر وينتقم . . . . . »

هذا ما فكر فيه فى دقائق مسرعة كالثوانى ، ونفض عباءته ليزيل ما علق بها من تراب حين العمل ، ثم تناول بندقيته غير ملتفت وراءه ، وتوارى عن الأنظار

— ٢ —

ونحن الآن فى الضفة اليسرى

أقبل الليل ؛ وانقلب الفلاحون إلى بيوتهم ، وهم يتوقعون الخطر الجاثم حيالهم ، يتوقعون أن تتدفق المياه عليهم فى هذه الليلة ان لم تنقص قليلاً ، وبقيت الريح العاصفة على شدتها تثير أمواجها فتوهن السدود . وكان الأعياء آخذاً منهم مأخذه فرقدوا متوكلين على الله ؛ الا الحرس منهم الذين أقاموا على السدود ، فكانوا متحفزين للعمل ، يروحون ويجيئون كأشباح الجن ؛ يلفهم نور القمر الضئيل الذى حجبت سطوعه الريح الذارية وما كانت تحمله للقوم من غبار كثيف

وكان جسام القاتل واحداً من هؤلاء الحرس

وكان وهو فى جماعته ، مطمئناً غافلاً ، لا يدرى أن بداى قد أقسم لينتقمن لشرفه فى تلك الليلة ؛ لا يدرى أنه جاء دارة القوم خلسة وقد عبر الفرات على زورق من زوارق الصيد صغير ، بعد لأى وجهد كبير ؛ وأنه كان ـ وقد مضى الهزيع الأول من الليل ـ يكمن له وراء نخلة فى طرف حديقة مجاورة لبيوت القبيلة مما يلى مضرب الحرس ملثما بكوفيته ، متلفعاً بعباءته السوداء ؛ مصمما على قتله

وكان موقع الحارس جسام قريباً من الحديقة ؛ وكان خصمه يتبينه ؛ وكان يعرفه مستدلاً عليه بصوته الذى كان يرتفع بين دقائق ودقائق إذ ينادى صحبه نداء الحذر والانتباه

وكان ينظر إليه وهو واقف فى الظلام ، ظلام الحديقة الذى كان يستره كالخنزير الحانق على الصياد ؛ ويقول بصوت خافت ؛ وكأنه يتوعده :

ـ « اصبر لى قليلاً يا ابن الكلب . . . . »

ثم حشا بندقيته ؛ وقد اشتدت ضربات قلبه ؛ وبدت على وجهه سيماء الانسان الوحشي القديم ؛ وثني ركبتيه وأطال النظر فى عدوه ليسدد الرمى ؛ وكاد يطلق رصاصاته الخمس التى أعدها لقتله ، لولا أن رأى بجانبه حارسا آخر أقبل عليه مسرعا . فكان على بداى لقتل واحد منهما أن يقتل الاثنين معا ، وهذا ما لم يكن يريده ؛ لأن ثأره على تلك الصورة يخلق له مشكلة يصعب عليه التخلص منها ؛ فقد يغتفر له ذوو جسام وأبناء قبيلته قتله لأنه قاتل أخيه ، ولكنهم لا يغتفرون له قتل الثانى ؛ ولابد لهم من قتله بعدئذ ليثأروا به منه

وتملكته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل

ثم بدا له أن يتوقع عودة القادم ، لينفرد بفريسته ، وبينما هو فى موقفه هذا ، ارتفعت من جانب بعيد قيد غلوة صيحة حارس يستغيث

لقد حم الأمر ؛ وتفجرت المياه من ثلمة حدثت فى السد المصاقب ، ومضى الحرس وفى طليعتهم جسام ، يعدون مستبقين لسد الثلمة ، فلم يتمكنوا من ذلك ، ولم يكن دفع المياه المتدفقة المتحدرة تحدر السيل من أعالى الجبال مستطاعاً

واستيقظ أبناء القبيلة فروّعهم الحادث ، وشعروا بوقوع الكارثة ، فأضاعوا رشدهم ، كما أضاعوا من قبل جهودهم كلها فى الزرع وفى إقامة السدود . وحاولوا كفاح المياه العرمة فحاولوا عبثاً ، وراموا مستحيلا

وما كان أمامهم إلاّ الهرب ، فكان النساء يولولن ، والأطفال فى خوف ورعب يتصارخون . وكان جسام ذا أسرة تتألف من زوج ، وثلاثة أطفال ، وأم عجوز ، وأخت . وكان الرجل آخر هارع إلى أمه وإلى أطفاله لينقذهم من الغرق ، وقد خسر مع الخاسرين نصيبه فى الزرع ، ونسى بقرته وغنمه ؛ وعلى

هذه البقرة والغنم تقوم حياتهم بعد الزرع . . .

وأدركت الرحمةُ الطبيعةَ حينئذ ، فسكنت الريح ، وانقشع الغبار ، فهذا القمر المنير زاهياً متلألئاً يطل على هذه الفاجعة فى قسوة وجمود

— ٣ —

وبعد ساعة أو أقل كانت الثلمة متسعةً ، تنصبُّ منها فى السهل الكائن وراءها حيث البيوت ثم الحقول ، مئات الألوف من الأمتار المكعبة من الماء . وكان بداى يشهد هذه الفاجعة التى فُجعت بها القبيلة فى دهش وتألم . وكانت نفسه ساكنة هادئة بعد أن أفلتت فريسته منه ، وأحس شيئاً يتمزق فى جوفه . ثم استيقظ فى نفسه شعور غريب جديد ، هو غير الشعور بالضراوة والرغبة فى الانتقام والثأر ؛ وذهل عما جاء من أجله ؛ فاقترب من بيوت القوم قليلاً ، فرأى — مما رأى — أطفال جسام الثلاثة فى صراخهم وعويلهم ، والأب يحمل منهم الاثنين الكبيرين وكانا فى الرابعة والخامسة ، نحيفين واهنين من مرض أو جوع ، وزوجه تحمل بعض المتاع وتقتاد البقرة ، وأخته تريد أن تحمل أمها العجوز ، والطفل الثالث ، وهو فى الثالثة من العمر ما يزال على الأرض متشبثاً بأذيال أمه يرتجف ويعول باكياً ، والأم ذاهلة تحنى فتتناوله لتحمله فوق المتاع ، فيفلت منها زمام البقرة ؛ ثم يذكر الأب ، وهو دهش يحمل طفليه ، غنمه فيذهب إليها حيث كانت فى زريبة مجاورة ليسوقها أمامه . . . وأبناء القبيلة كل منهم مشغول ببلائه ، وقد اختلط الحابل بالنابل ؛ فكانوا فى مثل يوم المحشر الموعود

وكانت الكلاب تنبح شاعرة بالخطر نباحاً صاخباً يملأ الجو

وحينئذ كان بداى يحكم لثامه شداً ، ويتنكب بندقيته ، ويشمر عن ساعديه ؛ ويبادر لنجدة هذه الأسرة وعونها . وأقبل على الأم الذاهلة فتناول منها طفلها لخفف عنها حملها الثقيل . وحسبه جسام ، وقد حانت منه التفاتة اليه فى الزحام ، واحداً من أبناء عمه ، فخاطبه مرشداً ومشجعاً :

— « دونك السد »

وكان السد الممتد على طول النهر والمؤدى إلى قرية قريبة ، الطريق الوحيد الذى لجأ اليه القوم طلباً للنجاة من الغرق لقربه من بيوتهم وارتفاعه عن السهل المنبسط الذى أخذ الماء يغمره شيئاً فشيئاً . . .

وإذ تخلصت زوج جسام من وليدها ، واطمأنت لنجاته ، استطاعت سحب البقرة وراءها واستنقاذ ما حملت على ظهرها من متاع البيت . وحملت أخته أمها العجوز . وبلغوا يخوضون الماء المتدفق خوضاً ، معه ، وهو حامل طفليه . واستمدوا ليمشوا وراء قافلة القبيلة التى رحلت من مستقرها وقد مسها ضرٌّ أليم .

وأقبل أثرم الرجل اللثم حاملاً الطفل الصغير فأنزله إلى الأرض ، واقترب حتى قابل جساما فحل عنه لثامه ، ونظر اليه ، فى ضوء القمر ، محلقاً كأنه يقول له :

— « هلا عرفتنى ؟ فأنا خصيمك طالب ثأر عباس ؟ »

ولبثا دقيقة ينظر الواحد منهما إلى الآخر ، وقد أوشكت أن تثور فيهما نوازع الرغبة فى الاقتتال ، هذا ليدافع ، وهذا ليثأر وينتقم

ونحّى جسامُ طفليه عنه فى تأن وحذر ، ومد يداه إلى خنجره . بيد أن بداى أخلف ظنه فما زاد على أن هز رأسه ، وقال له بصوت أجش :

« اذهب الآن ! . . مع السلامة . . خلصت . . ولكن لا تنس أن لك ساعة أخرى ! »

وانكفأ إلى زورقه مسرعاً ، تاركاً ثأره[1] وزوجه التى انتهت اليه آخر الأمر ، فى حيرة واستغراب

***

وآب بداى الفائز إلى قبيلته ساكناً هادئاً ، فخوراً بالفعلة التى لم يفعل مثلها أحد قبله ، إذ أنجد أسرة حين لم يكن له من إنجادها بد ، واستحيا لأجلها ، ولو إلى حين ، نفساً ما كان لها إلا أن تموت

— ٤ —

ومر عام على هذا الحادث . فعادت قبيلة جسام إلى أرضها الأولى ، بعد أن زال عنها الماء الذى غمرها أشهراً ؛ وأنشأت لها سداً جديداً على ساحلها ؛ فجاءها رسل من القبيلة الثانية يسعون بين بداى وجسام بالصلح ، ويحملون دية القتيل مالاً وامرأة ، وهى أخت القاتل ، فتزوجها بداى زواج « الفصل » على سنة القبائل الموروثة وتقاليدها

ولم يعد أحد يجرؤ ، بعد ذلك ، أن يعير الفتى بأنه نام عن ثأره نوم الجبان الذليل

(العراق — الأعظمية) محمود . أ . السيد

(١) ثأر الرجل : قاتل قريبه